الترجمة الأدبية لحياة النبي ﷺ
بين
المنهج التاريخي والمنهج التحليلي

دراسة نقدية تطبيقية على

حياة محمد – هيكل، عبقرية محمد – العقاد

إعداد الباحثة

رضا رمضان أحمد

مدرس الأدب والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

فرع البنات بالمنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا
بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد النبي الهادي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

فإن للحديث عن حياة النبي الكريم محمد ﷺ موضع أسير في النفوس، ومكان يعطر صفو القلوب، يناجي الأرواح المؤمنة بهمس المحبين له ﷺ، إنه النبي الكريم صاحب الأدب الرفيع والخلق القويم، من أدبه ربه فأحسن تأديبه[١] وهذبه بالحق فأحسن تهذيبه.. إنه خير البشر قاطبة.. إنه من اصطفاه ربه فصار إمامًا للمرسلين، وحياة للمحبين.

عندما نقترب من حياة من كانت هذه صفاته فلاشك أن للبحث مذاقًا خاصًا، ولونًا مميزًا، وبريقًا أخاذًا يخطف القلوب، ويجعل الباحث، أو القارئ يعيش جواً روحانياً حانياً يحلق في الأفق الفسيح، والسماوات الرحبة .. ذاك الأفق، وتلك السماوات التي تأخذ بالألباب وتخطف العقول إنه محمد ﷺ وحياته التي هي (جديرة بأن ينقطع لبحثها على طريقة علمية جامعية أكثر من أستاذ يتخصص فيها ويتوفر عليها)[٢].

من أجل هذا وغيره، ومن أجل حب دفين وهوىً أصيل في نفسي، وتقدير عظيم لشخصه الكريم وددت أن أقترب منه، ومن حياته أكثر فأكثر، علَّني أقتبس من نور فيضه الهائل، وسبحات نفسه الحانية .

فطوفت وطافت نفسي لقراءة حياة محمد عند أهم من كتب عنها من الأدباء فوجدت الأصابع تشير إلى ذاك الأديب الكبير سعادة الدكتور محمد

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « المعنى صحيح، لكن لا يُعرف له إسناد ثابت » [مجموع الفتاوى (١٨/٣٧٤)].

(٢) حياة محمد، د. محمد حسين هيكل ط الهيئة المصرية العامة ص٣٤ .

حسين هيكل[١] ومؤلفه (حياة محمد)، وتشوقت نفسي لمعرفة المزيد، فذهبت إلي هذا الكم الهائل من المؤلفات المكتبية الأدبية فكانت مكتبة الأستاذ العقاد[٢] ومؤلفه (عبقرية محمد).

وعندها وجدت نفسي أمام مذهبين في الكتابة والتأريخ ومنهجين[٣] في العرض، والسرد لكل واحد منهما بصمة مميزة، وطابع خاص، ومذاق فريد فالموضوع واحد (حياة النبي ﷺ) ولكن طريقة التناول مختلفة فأدركت أنه لابد من الوقوف ملياً للبحث والتمحيص في منهج الأديبين. فخضت غمار التجربة بمتعة بالغة ذلك أنه حديث عن الشخصية التي تبهرني دائماً بعطاياها التي لا تنفد ولطبيعة البحث الأدبي الذي يقترب من نفسي وعقلي كثيراً.

---

(١) محمد حسين هيكل ولد في ١٣٠٥هـ - ١٨٨٨م، كاتب صحفي، مؤرخ من أعضاء المجمع اللغوي، ومن رجال السياسة بمصر. ولد في قرية كفر غنام بالدقهلية، وتخرج بمدرسة الحقوق بالقاهرة ١٩٠٩م، وحصل على الدكتوراه في الحقوق من السربون بفرنسا. ولي وزارة المعارف مرتين، وتوفي سنة ١٣٧٦هـ - ١٩٦٠م. [الأعلام - الزر كلى - المجلد السادس، ط. دار العلم للملايين - بيروت - لبنان ط ١٦].

(٢) عباس محمود العقاد، ولد في ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٩م، إمام في الأدب، مصري من المكثرين كتابة وتصنيفا مع الإبداع، أصله من دمياط، عمل أحد أجداده في عقادة الحرير. ولد عباس في أسوان وتعلم في مدرستها الابتدائية وشغف بالمطالعة وكان من أعضاء المجامع العربية الثلاثة (دمشق- القاهرة و بغداد). توفي في ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م. [المرجع السابق، المجلد الثالث].

(٣) المنهج :نهج طريق نهج: بين واضح، والمنهاج: الطريق الواضح. [لسان العرب (مادة ن هـ ج)، ط. دار إحياء التراث العربي - مؤسسة التاريخ العربي -بيروت لبنان ط. ٢-١٤١٢].
والمنهج: المسلك الذي يسير فيه الباحث للوصول إلي المعرفة بواسطة طائفة من القواعد والعمليات التي يتبعها العقل والحس للوصول إلي نتيجة محددة. [راجع البحث الإجتماعي -المنهج وتطبيقاته تأليف دكتورة حكمت عرابي ط. ١ -١٤١٠-١٩٩٠ص١].

فهل ما كتباه ترجمة أم سيرة ؟ وما معني الترجمة إذاً ؟ وهل هناك فرق بينها وبين السيرة ؟

بداية السيرة غير الترجمة، ذلك (إن كلمة الترجمة قد تعنى من منحى لغوى خالص معنى حياة أو قل رحلة معنى في الحياة، أى أن كاتب الترجمة مطالب بالغوص، والتحليل، والاستبطان الداخلي في حركة إبداعه للترجمة... ربما لأن لكلمة الترجمة لغوياً ما ليس لكلمة السيرة من دلالة بادية أو مستترة قد توحي بهذا الاحتمال.. فترجم الرجل عما في نفسه أي عبّر عنه، وترجم لغيره حاول استنطاق تاريخه أي التعبير عنه)[1].

والترجمة منها الترجمة الذاتية أو الترجمة الغيرية، والذاتية التي يترجم فيها الكاتب لنفسه وحياته ويفرد لأحداث حياته صفحات من كتاب يكون كل هدفه فيه هو رصد واقع عاشه أو يعيشه وذكريات طويت أو مازال أثرها باقٍ وهي كثيرة في الأدب العربي، أمثال: (أنا) للعقاد، و(حياتي) لأحمد أمين، و(الأيام) لطه حسين.. وغيرهم كثير.

أما التراجم الغيرية فهي التي يترجم فيها الكاتب حياة الآخرين ويرصد واقع حياتهم وتاريخهم وما كان لهم فيه من أحداث صنعت تلك الشخصيات ووضعت لهم قسمات وسموا بها وتميزوا بسببها عن غيرهم، ومن هنا يمكن القول بأن الترجمة الغيرية مصطلح تاريخي ولكنه أيضاً ليس تاريخياً بحتاً، وإنما هو تاريخ برؤية فنان أو أديب أو بمعنى أخر تاريخ مغلف باللمحة أو باللمسة الأدبية (التاريخ إذاً هو الأرضية الطبيعية لكل تحرك على مستوى

---

(١) التراجم الغيرية في الأدب العربي الحديث - المفهوم والأصول والاتجاهات - مطبعة الإيمان - ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م ص١٨.

التراجم الغيرية، وهو يبقى تاريخاً في يد المؤرخ، ولكنه يستحيل إلي خلق أدبي في يد الفنان المنشود لكتابة التراجم الغيرية)[١].

كما أن التراجم الغيرية ليست مصطلحاً أدبيا صرفاً، لأنها لو كانت كذلك لتحولت إلي عمل قصصي أو روائي من تأليف الباحث، ولا علاقة لها بالشخصية موضوع البحث.

ولا شك أن في وصف محمد بالعبقرية[٢] من قبل العقاد معني يقصده، ذلك أن العبقرية (قدرة عقلية وإبداعية استثنائية من مستوي رفيع تترجم عملياً على شكل انجاز فذ وأصيل يترك بصمات عميقة كبيرة لمعرفة الإنسان وحضارته)[٣] فالعبقري إذاً (تعبير يستخدم لوصف الفرد الذي يمتلك قدرة عقلية وإبداعية استثنائية، ويتوصل إلي نتاجات إبداعية غزيرة وغير مسبوقة وممتدة زمنياً وذات قيمة للمجتمع في أحد مجالات الحياة الإنسانية، أو يظهر مهارة فائقة فريدة في أحد المجالات الفنية الأدائية والبصرية والتقنية)[٤].

ولا شك أن العبقرية بهذا المعنى تنطبق تماماً علىٰ شخص الرسول ﷺ، فهو فذ له انجاز وبصمات عميقة الأثر كان أثرها وسيظل مع وجود البشرية، فالعبقرية صفة تضاف إلى صفاته الكثيرة، والمتنوعة وترفع من شأنه بلا شك

---

(١) المرجع السابق ص٥.

(٢) عبقر: موضع بالبادية كثير الجن فيما زعموا، وأصل العبقري صفة لكل ما بولغ في وصفه، وعبقري القوم: سيدهم. [لسان العرب، مادة (ع. ب. ق. ر)].

(٣) أساليب الكشف عن الموهوبين ورعايتهم. تأليف د - فتحي جروان، ط- دار الفكر، ط الثانية ٢٠٠٨م -- ١٤٢٨هـ عمان الأردن ص ٤١٤.

(٤) المرجع السابق ص٤١٤.

ولا تقلل من مكانته مع اتصاف غيره بها فهو بشر في المقام الأول له نفس صفات البشر إلا أنه بشر مختار ومصطفي من قبل الحق ﷻ.

والحديث عن السيرة حديث له طابع خاص قريب من نفس كل من يقرأ عنها ذلك (لأن الأشخاص الذين يصلوننا بأنفسهم وتجاربهم هم الذين ينيرون أمامنا الماضي والمستقبل)[١]. وكأن في سيرة كل فرد من أولئك الذين كتبت عنهم سيرتهم درس وعظة، وخلاصة تجارب، وأحداث لابد أن يستفيد منها الآخرون، والأيام دول بين الناس .

والعظة لا تأتى إلا بمعرفة أخبار السابقين لنستفيد من تجارب حياتهم فيكون ذلك عوناً لنا في متابعة مسيرة الحياة المتغيرة المتقلبة خاصة سير العظماء والعباقرة والنابغين ولاشك أن أعظم وأنبغ النابغين هو سيد المرسلين محمد عليه أصدق الصلاة وأزكى التسليم.

فسيرة حياته نبراس يضيء للآخرين دروبهم ليقتبسوا من نور هديه المبين الذي هو وحي من رب العالمين .

وهذا ما حدث بالفعل، فعندما بدأ المسلمون في كتابة السير، بدأوها بكتابة سيرة الرسول ﷺ.

(وكان هذا البدء يشير إلى درس أخلاقي عميق في حياتهم، لو شاءوا أن يتخذوا سيرة الرسول لتلك الغاية ولكنهم لم يفعلوا بل كتبوا سيرته تحت مؤثرات أخرى)[٢]. ولعل ذلك راجع إلى عاملين كبيرين: الأول أن سيرة

---

(١) فن السيرة، د. إحسان عباس – ط. دار الشروق عمان، ط. الخامسة ١٩٨٨م، ص٦.

(٢) المرجع السابق ص١٤.

الرسول ﷺ جزء من السنة التي هي المصدر الثاني للتشريع، والثاني أن المسلمين كانوا قد ورثوا نظرة الجاهلية إلى التاريخ (وهى نظرة قائمة على الأيام وطبيعة الحرب وشئون القتال ولذلك اهتم كتاب السير قبل كل شيء بمغازي الرسول،وتصوير ذلك الدور الحربي الذي أدى إلى انتصار الرسول في النهاية)[١].

فالمؤلفات التي تناولت سيرة الرسول ﷺ كثيرة وقديمة ؛ منها ما يعد بمثابة الأصول والثوابت لابد من الرجوع إليها عند كتابة سيرة النبي ﷺ، كسيرة ابن إسحاق، والسيرة التي بني منها ابن سعد الجزأين الأولين من كتاب الطبقات، ومغازى الواقدى، فإن تلك المؤلفات وأمثالها تعد أساسا للمعلومات المقررة المقبولة عن حياة الرسول ﷺ وأعماله، (أما ما كتب بعد ذلك فإنه كان في أكثره جمعاً لروايات مختلفة أو قبولا لبعض الأساطير المتأخرة، وربما كان أيضاً شرحاً لبعض الألفاظ والمناسبات، أو نظماً لأحداث السيرة أو تلخيصًا لها)[٢].

وفى العصر الحديث مازال الإحساس مفعم بالحديث عن سيرة الرسول ﷺ علي الرغم من كثرة المؤلفات التي خاض أصحابها هذا الغمار إلا أن الشوق بالقرب لا يزال يداعب أذهان وقلوب الأدباء وسيظل يراود أحلامهم ويداعب آمالهم ففي كل مرة يكتب فيها أديب عنه ﷺ تتفتح على يده أفانين وجوانب في شخصه الكريم لم يقف عليها من قبله باحث فعطاياه الشخصية وجوانب حياته المعيشية لا تنفد ولا تنتهي مما يجعل الباحثين في عمل دائب وشغف مثابر لفتح مغاليق هذه الشخصية التي صاغها رب

---

(١) المرجع السابق ص١٤.

(٢) المرجع السابق ص١٧.

الأرباب، وأعطاها ما لم يعط غيرها، الحي الوهاب، وشكلها فكونها مسبب الأسباب.

ولعل هذه العاطفة وذاك الإحساس الجياش هو الذي دفع الدكتور محمد حسين هيكل أن يكتب عن «حياة محمد ﷺ» بشيء من التفصيل والإسهاب ؛ ميلاداً وخطوباً ونهاية، ويتناول في كتابه موضوعات كثيرة بداية من الحديث عن بلاد العرب قبل الإسلام، ومكة والكعبة وقريش، ثم محمد من ميلاده حتى زواجه، وكذا من زواجه حتى بعثته وهجرته، ثم غزوة بدر وغزوة أحد... الخ من الأحداث الكبرى التي وقعت في حياة النبي ﷺ حتى وفاته، ويصرح في مقدمة الكتاب بالطريقة التي اتبعها فيه بقوله إنما أردتها (دراسة علمية علي الطريقة الغربية الحديثة خالصة لوجه الحق ولوجه الحق وحده)[١].

ويؤكد ذلك مراراً فيعود قائلاً: (إنني أجري في هذا البحث علي الطريقة العلمية الحديثة وأكتبه بأسلوب العصر)[٢]، هذه الطريقة التي اتبعها هيكل في مؤلفه عن حياة محمد وهذا الحشد الهائل لكمية الأحداث التي وقعت قبل وبعد ميلاد الرسول ﷺ يجعلني على يقين بأن ما كتبه الدكتور هيكل إنما هو سيرة لا ترجمة بالنظر لما كتبه الأستاذ العقاد في «عبقرية محمد» هذا التدقيق في انتقاء الأحداث والوقوف علي تجارب خاصة وأحداث بعينها وتحليلها ومناقشتها بالأخذ والرد يدعونا إلي القول بأن «عبقرية محمد» ترجمة وليست سيرة ومن هنا يمكن التسليم بأن (عبقريات العقاد مثلا ليست سيراً علي أي نحو من الأنحاء، لأن الرصد

---

(١) حياة محمد ص٣١.

(٢) المرجع السابق ص٥٣.

التاريخي،وتسلسل الأحداث في نمطها المنطقي، والابتداء من منطق البدء، والانتهاء عند نهاية المطاف، كل أولئك لا يمثل واقعاً علي صفحات العبقريات، ولكنها تراجم أدبية بلا محاولة للتزيد، إن الحادثة لا تعني فيها مجرد حجمها الحلولى بقدر ما تعني كل أحجمها النفسية، والبيئية و الرسالية، وهذه سمات التراجم الأدبية وليس غيرها من الأنواع)[1].

ومن يقرأ عبقرية محمد يلمس بوضوح صدق هذا الكلام فهو لا يعني بسرد أحداث حدثت لمحمد ﷺ ويتبع الحدث تلو الآخر بدءً ونهاية وإنما يقف عند حوادث بعينها لا غيرها لكي يحقق الهدف الذي ارتضاه لنفسه من خلال الحديث عن شخصه الكريم وهو بيان جوانب العبقرية فيه من منطلق الوقوف عند أحداث بعينها تكون دليلاً علي تلك العبقرية وكذا من خلال عرضه لجوانب حياتية عاشها وأوجدها وصاغها، وشكلها ﷺ كزوج، وكداعي، وكعسكري.. إلخ فأنماط محددة بعينها وقف عندها الكاتب يبين، ويطبق عليها صفة العبقرية في ذاته ﷺ مع اختلاف صورها، وتعدد مناحيها.

والعقاد نفسه يعترف بذلك في المقدمة قائلا: (فسيري القارئ أن «عبقرية محمد» عنوان يؤدى معناه في حدوده المقصودة ولا يتعداها إلي غيرها، فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف إلي السير العربية، والإفرنجية التي حفلت بها المكتبة المحمدية حتى الآن، لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها في هذه الصفحات، علي اعتقادنا أن المجال متسع لعشرات من الأسفار في هذا الموضوع، وليس الكتاب شرحاً للإسلام أو لبعض

---

(١) التراجم الغيرية في الأدب العربي الحديث – ص١٨.

أحكامه، أو دفاعًا عنه، أو مجادلة لخصومه، فهذه أغراض مستوفاة في مواطن شتى،يكتب فيها من هم ذووها ولهم دراية بها وقدرة عليها، إنما الكتاب تقدير لعبقرية محمد بالمقدار الذي يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى، وبالحق الذي يبث له الحب في قلب كل إنسان، وليس في قلب كل مسلم وكفي)[١].

إذًا لكل وجهته، وطريقته في التناول، ومنهجه في البحث وإن كان الموضوع واحداً وهو حياة النبي ﷺ تلك الوجهة و هذه الطريقة جعلت أو بمعنى أدق أوجدت للكاتبين منهج اتبعاه في الصياغة والعرض، فكان للدكتور هيكل منهجه الذي تميز به في عرض المادة، هذا المنهج يختلف عما قصده الأستاذ العقاد وتوخاه في عرض مادته وصير لكل مُؤلف مذاقه الخاص وطعمه المميز مذاق، وطعم يعكس شخص صاحبه في عمله وطريقة تفكيره بين سطوره، ومعالجة خاصة للمادة الأدبية في حنايا صفحاته.

فما المنهج الذي اتبعه الدكتور هيكل في «حياة محمد» وكذا المنهج الذي سار عليه الأستاذ العقاد في «عبقرية محمد»؟

مناهج البحث الأدبي كثيرة ومتنوعة منها المنهج التاريخي[٢]

---

(١) عبقرية محمد الأستاذ العقاد ط مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر ص٥.

(٢) المنهج التاريخي: يعتمد علي الوثائق ونقدها وتحديد الحقائق التاريخية وكذا التركيب والتأليف بين هذه الحقائق وتفسيرها من أجل فهم الماضي ومحاولة فهم الحاضر علي ضوء الأحداث الماضية – أصول البحث الأدبي ومناهجه – د. السيد تقي الدين ط دار نهضة مصر – ص١٤٧.

ومنها التحليلي[١] وغيرهما، والباحث يختار أيُّ المناهج يصب فيه تجربته ويعرض من خلا له مادته الأدبية ويطوع المنهج الذي يرتضيه تبعاً للهدف الذي يقصده والغاية التي يسعي إليها من وراء البحث.

وقد اختار الدكتور هيكل لنفسه في كتابه «حياة محمد» المنهج التاريخي حيث نظر إلي حياته ﷺ بمنظار المؤرخ الذي يرصد كل ما ورد،ويضع يده علي كل ما تم أخذه من المصادر السابقة التي تحدثت عن نفس الموضوع ويعرضها بإسهاب،وتفصيل فلا يكاد يترك حادثة أو موضوعا يتصل بشخصية صاحب السيرة إلا وينقله ويتحدث عنه في مسحة تاريخية الغرض منها إلقاء الضوء المكثف علي حياته ﷺ ميلادا،وحياة،ووفاة،واعتمد علي الأساسيات التي يقوم عليها الباحث أثناء استخدام هذا المنهج من الاستقراء الكامل،وتجنب استخدام الأحكام الجازمة،وكذا التعميم العلمي،وتلك لوازم من أساسيات المنهج،وعدم الالتزام بها في البحث يعد عيبا في تطبيق هذا المنهج، فالاستقراء الناقص يؤدى إلي خطأ في الحكم وذلك نتيجة للاعتماد علي الأحداث البارزة فقط والظواهر الفذة التي لا تمثل سير الحياة الطبيعية، فالأحداث الصغيرة لا تقل أهمية عن الحوادث البارزة والظاهرة، بل ربما تكون أكثر وضوحاً ودلالة علي حياة الفرد أو الشخصية[٢] وهذا ما فعله دكتور هيكل، فقد عرض كل

---

(١) المنهج التحليلي : لون من ألوان الكتابة المعتمدة علي التحليل النفسي للبطل والأحداث والشخوص الثانويين،وكدح الكاتب وراء إقامة توازن حي بين بطل الترجمة ومقولاته وبينه وبين المنهج العام لفلسفته -التراجم الغيرية - د-محمد أحمد الغزب ص١٦٦.

(٢) النقد الأدبي - أصوله و مناهجه، د. سيد قطب، ط. دار الشروق - ط الرابعة ١٤٠٠-١٩٨٠- بيروت ص١٤٧.

صغيرة وكبيرة عن حياته ﷺ، وعمل على سرد لجميع الأحداث التي مر بها أو مرت به، ولعل ذلك هو الذي دفع أحد الباحثين أن يقول صراحة بعد اطلاعه على حياة محمد لهيكل: (إن كاتبـاً كالدكتور محمد حسين هيكل في حياة محمد يعتبر صاحب اتجاه تاريخي في مقابل أن كاتباً كالعقاد في عبقرية محمد يعتبر صاحب اتجاه تحليلي.. لأن الأول منهما عني باستقصاء حياة النبي ﷺ ميلاداً .. وخطوباً..ونهاية .. في حين أن الثاني منهما – العقاد – ركز على ظواهر صميمية من حياة النبي على نحو انتقائي ظاهر الوضوح ..وأخذ يبني عمله على ضوء من هذا الانتقاء)[١].

وليس معني ذلك أن هيكل عزل نفسه عن الأخذ بالمناهج الأخرى فلابد من التداخل والتزاحم بين المناهج الأدبية، ويصعب جداً الفصل بينهم فقد وقف، وتأمل، وحلل إلا أن السمة الغالبة علي بحثه هي السمة التاريخية، وعنصر السرد هو الطاغي على غيره من العناصر، ومن هنا اعتبر بهذا العمل رائداً للمنهج التاريخي في التراجم الغيرية[٢].

بذلك أصبح مقابلاً للأستاذ العقاد الذي اعتمد على التحليل والمناقشة والأخذ، والرد، والانتقاء، والاختيار من حياته ﷺ فكان العنصر الطاغي والاتجاه السائد في «عبقرية محمد» هو المنهج التحليلي ويتضح ذلك منذ الوهلة الأولى أو بمعنى أدق الصفحات الأولى للعبقرية فعندما أراد أن يتحدث عن مولده ﷺ تدرج محللا ؛ بدءًا بالحديث عن عالم ثم أمة ثم قبيلة ثم بيت ثم أب ثم رجل ثم بشائر الرسالة، كما يتضح التحليل أيضاً في العرض الداخلي لهذه الجزئيات التي عنونها بعلامات المولد .

---

(١) التراجم الغيرية في الأدب العربي الحديث – أ.د. محمد العزب، ص٩٥.

(٢) المرجع السابق ص٩٦.

(فالعبقريات أو ما كتبه العقاد علي مثالها ليست سيرا بالمعني الدقيق، ولكنها تفسير لبعض مظاهر الشخصيات الكبيرة والأحداث والأقوال المتعلقة بها، علي قاعدة شبيهة بالتحليل النفسي وليست هو،وإنما هو لباقة في العرض، ومهارة في اللمح والتفسير، ولا يستقصي العقاد في هذه النماذج، وإنما يتناول المتعارف المشهور بتفسير جديد)[١] ولكن كيف طبق الرجلان المنهج الذي ارتضاه كل واحد منهما لبحثه وجعله قالبا صب فيه مادته الأدبية التي جمعها وأراد أن يطرحها علي نحو يمثل اتجاهه في التفكير،وطريقته في العرض والأداء.

لقد كان هيكل فنانا وعالما في ذات الوقت،ويمكن أن ينحي في مؤلفه «حياة محمد» منحي قصصي أو درامي مشحون بغير قليل من العواطف الجانشة (ولكن ذلك لم يتحيف كثيرا من طبيعة المنهج العلمي الصارم الذي التزم به في هذا الكتاب)[٢]

الذي أعلن عنه في بدايته ووضع ذلك نصب عينيه حتى لا يحيد عن الطريق الذي خطه لنفسه والدرب الذي ارتضاه من أجل الوصول إلي غايته. وقد وضع هيكل أساسيات المنهج التاريخي الذي ارتضاه ويتضح ذلك جليا عندما اعتمد علي القيمة العقلية في كل ما يتصدي له أثناء الحديث عن حياته ﷺ واستطاع أن يقارب بين هذه القيمة العقلية وبين المعجزات والخوارق التي تخرج بطبيعتها عن منطق العقل وتتخطى قوانينه (والحق أن الرجل كان موفقاً إلي مدي بعيد . فلقد اختار أن يتناول محمداً من المنحي الإنساني مؤكداً أن فذاذته في هذا الصدد وارتفاع قامته، المديدة

---

(١) فن السيرة د إحسان عباس ص٦٢.

(٢) التراجم الغيرية ص١١٢.

إلي أفاق تنحسر دونها عيون العباقرة، والنابغين هو وحده الدليل الحاسم علي نبوته، وهو وحده المدخل الطبيعي إلي التسليم له بكل الخوارق والمعجزات من غير حاجه إلي جدل)[١].

ولعل هذا هو ما دفعه إلي أن يقف إزاء كل القضايا الكبرى التي يعرض لها أثناء حديثه عن حياة النبي ﷺ موقف البادئ (بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب، ثم بالاستنباط القائم علي المقدمات العلمية، فإذا وصلت إلي نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمي تسرب الخطأ إلي ناحية من نواحيها،وهذه الطريقة العلمية هي أسمي ما وصلت إليه الإنسانية في سبيل تحرير الفكر، وهاهي ذي مع تلك طريقة محمد وأساس دعوته)[٢].

ودفعه التزامه بالمنهج التاريخي إلي الاهتمام بمجموعة من الأوساط كاهتمامه بالوسط الطبيعي الذي يمثل حديثه عن الموقع الجغرافي والبيئة الصحراوية التي يسكن فيها النبي ﷺ وكذا اهتمامه بالوسط الاجتماعي ويختص بالحديث عما يميز سكان المنطقة من ملامح،وأنظمة جسيمة، وأخلاقية، وعقلية.

وأيضا اهتمامه بالوسط النفسي وذلك أثناء حديثه عن المتغيرات والظواهر التي تحدد العلاقة بين الفرد وضميره،وبين الفرد ونفسه،وبين الفرد والفرد الأخر.

---

(١) المرجع السابق ص١٢٠.

(٢) المرجع السابق ص١٢١.

ونجد عنده أيضا اهتمام بالغ بالوسط الفكري الذي يقصد به دراسة كل ما تقع عليه أعين البطل من جمال في الإبداع،وتحرر في النظرة وتطور في الفكر.

وأيضا حديثه عن الوسط الذاتي وهو عرضه لما يكون عليه الإنسان من الجانب المادي والجانب الفكري من حيث هو مناط التحرر أو الجمود[١].

وهو بذلك يفتح المجال أمام الباحثين لدراسة منهج تاريخي يختلف عن منهج القدماء فهو يجمع،ويحقق،وينقد،ويرتب،ويفسر كما أنه يلتزم في كتابه أثناء عرضه لحياته ﷺ بما يسمي بـــ (تنامي الترجمة) أي أنه يتحدث عن الشخص الذي يترجم له من نقطة الميلاد ويسير وفق الحوادث الطبيعية حتى نهاية حياته فتشعر أنه يكتب لا لغرض ديني تعبدي،وإنما للبحث والعلم وفي سبيل ذلك تراه يركز علي دراسة العصر، والحضارة،والدولة.... فهو في «حياة محمد» (قد جلي موقف الإمبراطورية الإسلامية الأولي،وعلاقات هذه الإمبراطورية الإسلامية على مستوى عقائدي،وسياسي على مستوي عقائدي في اشتباكها مع الديانات الأخرى في حوار عميق،وعلي مستوي سياسي في اشتباكها مع الروم والفرس والعرب المناوئين)[٢].

وهو في عرضه للمادة العلمية إنما يعتمد علي المصادر القديمة ويستفيد من المراجع الحديثة، وفي هذا الاعتماد يقف وينقد، ويفحص،

---

(١) التراجم الغيرية – بتصرف شديد ص١٢٢.

(٢) المرجع السابق ص١٢٥.

ويمحص عندما يستدعي منه المرجع ذلك، وهو في اعتماده علي المراجع الأجنبية يقبل منها وكذا يرفض مالا يقبله أو مالا يوافق عليه، وعندما يقبل فإنه لا يقبل إلا من قطع عليه الدليل والبرهان مؤمناً أن هذا البحث لا يعد النقطة الأخيرة في الحديث عن هذا الميدان ربما كان الأساس الأول الذي يعد نقطة لانطلاق كثير من الأبحاث التي تخدم نفس الميدان، وهو دائما ما يذكر القارئ أن بحثه في حياة محمد لا يمثل الكلمة الأخيرة في هذا الميدان فيتوجه إلينا قائلا (هذه هي الطريقة التي جريت عليها منذ بدأت هذا البحث في حياة محمد ﷺ صاحب الرسالة الإسلامية وأنا منذ اعتزمت القيام بهذه الدراسة إنما أردتها دراسة علمية علي الطريقة الحديثة خالصة لوجه الحق،ولوجه الحق وحده)[١].

وهو في سبيل التزامه بالمنهج التاريخي علي الطريقة العلمية الحديثة يتوقف في بحثه عن حياة محمد علي ظواهر يقف عندها ويعرضها ويناقشها ظواهر فرضتها طبيعة الحياة المعاصرة،واهتمام كثير من المستشرقين بدراسة حياته ﷺ وجرأتهم علي شخصه الكريم واتهامه بما هو منه براء فيقف،ويناقش،ويدافع بالحجة والبرهان من ذلك وقوفه عند ظاهرة (التبشير والطعن ودعوة الاستعمار ضد الإسلام) فيتحدث عن كره كثير من الغربيين النصارى واليهود للإسلام،ويرجعون سبب انحطاط بعض الشعوب الإسلامية إلي الإسلام نفسه فيدافع عن الإسلام الذي كان سببا في تقدم العرب البدو في الجاهلية حتى كادوا يحكموا العالم فما ينسب للإسلام افتراءً وظلماً[٢] كما يقف الدكتور هيكل أيضا أثناء ترجمته لحياة محمد علي حادثة

---

(١) حياة محمد ص٦١.

(٢) راجع حياة محمد ص٢٨.

(الفداء والذبح)[١] تلك الظاهرة التي كان بطلاها إبراهيم وولده إسماعيل – عليهما السلام – وناقش تلك القصة من الوجهة العلمية، والعقلية بعد أن عرضها في كل الروايات في القرآن الكريم، وفي التاريخ، وعلي ألسنة الرواة، وعند مؤرخي الغرب ويظهر من خلال عرضه لتلك القصة عقلانية البحث و علمية المنهج عندما يعرض الرأي ونقيضه، ويناقش الدليل وما يعارضه.

كما تعرض لحادثة (شق الصدر) ويعنون لها بعنوان (أسطورة شق الصدر) ويصرح بأنه لا يوافق مبدئياً علي صحة حدوث تلك الواقعة ويعرض من خلال حديث لأراء الكتاب، والمؤرخين العرب وكذا المستشرقين[٢] وكذا ظاهرة (الفكر والسيف)، (فأكد أن عقيدة من العقائد أو دعوة من الدعوات لا يمكن أن تنشر هكذا بضربة سيف،وإذا كانت تلك هي طبيعة العقائد كلها والدعوات كلها فإن الإسلام أولي أن يكون طليعة كل أولئك علي السواء، لقد هوجم، وجرح وشهر السيف عليه مرات،كل ذلك وهو معتصم بالكلمة أساسا للحوار وبالموقف أساسا للسلوك)[٣]

وبهذا استطاع الدكتور هيكل أن يضع أساسا لمنهج تاريخي جديد يجمع بين الأصالة والمعاصرة في دراسته وطريقة تناوله للمادة البحثية،وأن يضع بصمة عميقة في تاريخ الدراسات الأدبية التي تتخذ من المنهج التاريخي طريقا لها وغاية يسعي من خلالها لتحقيق هدف هو أسمي من تلك الغاية، وأبعد منها، وطبيعي أن يلقي هذا المنهج وطريقة العرض تلك

---

(١) راجع حياة محمد ص٨٥.

(٢) المرجع السابق ص١٠٣،١٠٤.

(٣) التراجم الغيرية أ.د. محمد أحمد العزب ص١٣٥.

قبولا من بعض الباحثين في حين لا يلقى قبولا من البعض الأخر،ويجد في تطبيق هيكل لهذا المنهج بعض الثغرات التي وقع فيها ويكشف عدم تمكنه من كيفية تطبيق هذا المنهج بعناية أو عدم موافقته لما قام بمناقشته، أثناء عرضه لبعض القضايا أو تلك الظواهر التي وقف عندها أو وجد في المصدر الذي استقي منه هيكل طريقا للطعن فيه من جهة ضعف روايته وسنده أو غير ذلك من الطرق التي تضعف بها الروايات و النقول.

علي أن باحثًا لم يعصف بكتاب «حياة محمد» كما عصف الدكتور فاروق حمادة الذي صوب سهام نقده اللاذع علي الكتاب وصاحبه وسخر في كثير من الأحيان من صنيع الدكتور هيكل وكتابه وطريقته ومنهجه ورواياته التي اعتمد عليها بأسلوب بعيد كل البعد عن الموضوعية في النقد والاحترام في التعبير فليقل هو وغيره ما يشاءون ولكن بأسلوب مهذب يليق بناقد درس، وفكر، وناقش، وعبر.

والاختلاف في الرأي بالطبع لا يفسد للود قضية، والمعارك الأدبية كثيرة ولها تاريخ طويل ولكن لابد أن يتحلي الناقد بالأسلوب المهذب الراقي الذي يوصل المعلومة النقدية دون تجريح وهدم وليكن غرضه وهدفه البناء والتقييم لا الهدم والتجريح.

فيعقب حمادة علي الطريقة التي اتبعها هيكل في كتابه «حياة محمد» عندما قال إنه أرادها طريقة علمية حديثة مكتوبة بأسلوب العصر خالصة لوجه الحق لا غير، فينقد هذه الطريقة قائلا: (لكن أسلوب العصر،والطريقة العلمية،ومنهجه الصحيح الحديث،لم يعين مساربها و جوادها،ولم يحدد معالمها و منائرها لا من قريب ولا من بعيد،بل إن قارئ الكتاب أول ما

يلاحظه في سرد الأحداث ومعالجتها أنها سيقت دون منهج أو مسار محدد،بل كانت مجموعة منتقاه علي ذوق المؤلف وحسب رأى جامعها)[١].

والحق أن هذا كلام مخالف لما سبق الحديث عنه في هذا البحث عن المنهج الذي راده هيكل في كتابه «حياة محمد» وطريقته في عرض مادته العلمية وجمعه بين المنهج التاريخي كما عرفه القدماء وبين الأسلوب المعاصر من التدقيق،والجمع،والشرح،والتفسير.

ويتهم الكاتب الدكتور هيكل بأنه قلل من الاستشهاد بالآيات القرآنية في حين أنه صرح بأن اعتماده الأول سوف يكون علي القرآن الكريم باعتبار أنه المصدر الأول للسيرة المحمدية حيث قال :(ولقد تبينت أن أصدق مرجع للسيرة إنما هو القرآن الكريم فإن فيه إشارة إلي كل حادث من حياة النبي العربي يتخذها الباحث منارا يهتدي به في بحثه ويمحص علي ضيائه ما ورد في كتب السنة)[٢].

ويعقب الكاتب علي ذلك قائلا :(ولكن أثر ذلك لم يظهر في بحوث الكتاب،بل كان يلوي الآيات القرآنية القليلة التي استشهد بها عن مواضعها ويستدل بها استدلالات بعيدة)[٣].

إذًا نحن بصدد اتهامين يتهم بهما الدكتور حمادة الدكتور هيكل في حياة محمد

---

(١) مصادر السيرة النبوية وتقويمها ط – دار الثقافة – الدار البيضاء – الطبعة الثانية ص١٥٠

(٢) حياة محمد – ص٣٢.

(٣) مصادر السيرة النبوية وتقويمها، ص ١٥١.

الأول: أن بحوث الكتاب يقل فيها الاستشهاد بآيات القرآن الكريم،وهذا مخالف للنهج الذي أعلن عنه صاحبه.

الثاني: أنه يلوي الآيات القرآنية عن مواضعها ويستدل بها استدلالات بعيدة.

ونستطيع منذ الوهلة الأولي لتصفح «حياة محمد» أن نبطل ما زعمه د-حمادة ورمي به د-هيكل فلا تكاد تخلو صفحة من صفحات الكتاب من الاستشهاد بآيات الذكر الحكيم، فهي تلمع كالشهاب بين ثنايا السطور، ويلوح ضوءها كالقبس المضيء من وقت لآخر، و يقتبس من القرآن الكريم آيات طويلة، وكثيرة، فبطل بذلك زعم الزاعم،وبهت تهامه.

أما كونه يلوي الآيات القرآنية عن مواضعها فهذا أيضا ما هو منه براء بأكثر من دليل وأكثر من موضع في الكتاب فلك أن تقف علي أي استشهاد قرآني أورده المؤلف في كتابه وتعقد الصلة بينه وبين ما ورد في سياقه فسوف تدرك علي الفور اللحمة القوية،والصلة الوشيجة بين الآية موضع الشاهد والمناسبة التي سيقت من أجلها والأمثلة كثيرة لا حصر لها، فمثلا أثناء حديثه عن إبراهيم عليه السلام يروى قصته مع أبيه وتحطيم الأصنام يستدل بما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[1] ثم يقول هيكل: (وإنما فعل إبراهيم هذا بعد إذ فكر في ضلال عبادة الأصنام وفيمن تجب له العبادة)[2].

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٦٢، ٦٣.

(٢) حياة محمد، ص٨٤.

ثم ينقل قوله تعالي: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ إلي قوله تعالي: ﴿ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[١].

ثم يرمي الدكتور هيكل بما هو أبشع عندما يتهمه بأنه يتظاهر بالدفاع عن الرسول ﷺ فيقول: (إنه في نصفه الأول لا يختلف عن كتاب أي مستشرق غربي رغم أن مؤلفه تظاهر بالدفاع عن الرسول ﷺ في قصة الغرانيق،وزواجه من السيدة زينب بنت جحش لكن دفاعه عن قصة الغرانيق ينطبق عليه المثل القائل: جهاد في غير عدو، وقتال في غير معركة، لأن هذه المعركة قد أنهاها قبله علماء كثيرون منذ الصدر الأول باعترافه هو)[٢].

فكونه لا يختلف عن أي مستشرق لم يصرح أو يوضح الكاتب أي وجهة للاختلاف أو للاتفاق بين هيكل والمستشرقين فهل معني كونه ينقل ويستشهد ببعض آراء المستشرقين أنه منهم وكلمته تشبه كلمتهم؟، لا بالطبع الأمر ليس كذلك وربما يكون علي العكس من ذلك فهل كل ما ورد عن المستشرقين لا يجوز الاقتراب منه ومناقشته ثم الموافقة عليه؟ وهل معني كون القضية التي يتكلم عنها ويسرد أحداثها تكلم عنها غيره،وقال رأيه فيها – هل معني ذلك – أنه من المسلم به جدلا أن يقف عندها،وأن لا يدلي بدلوه فيها ويصرح برأيه في شأنها ؟.

ثم يعود الدكتور حمادة ويتهم الدكتور هيكل بضعف في المنهج

---

(١) سورة الأنعام: الآيات من ٧٦ إلي ٧٩

(٢) مصادر السيرة النبوية وتقويمها – د. فاروق حمادة، ص ١٥٠.

التاريخي عندما يعتمد علي روايات ضعيفة غير موثقة فيقول ذلك ويكرره في أكثر من موضع فيعقب علي ما قاله هيكل (وسجي حمزة ببرده وصلي عليه)[١]، فيقول معقبا علي هذه الرواية: (وهي رواية واهية فهي من رواية الحسن بن عمارة وهو ضعيف بإجماع أهل الحديث في حين أبهمه ابن إسحاق)[٢].

وأستطيع أن أقول إن ورود مثل هذه الروايات الضعيفة واستشهاد الكاتب بها في بعض الأحيان لا يعني أن العمل كله في مجمله مبني علي الضعف وعدم الثقة في النقول التي أوردها فيه، فالكاتب يجتهد في جمع مادته العلمية ويحاول قدر المستطاع تهذيب وتشذيب روايتها، وما قد يقع فيه من الاعتماد علي رواية ضعيفة يعد أمراً وارداً طالما لم يغلب عليه ذلك، وربما لم يجد غيرها وما يدريه لعله فحص وتمكن منها ؟ إلي غير ذلك من المسائل التي تدرس في علم الأسانيد للحديث النبوي الشريف.

وأتفق مع حمادة فيما أورده بشأن الأحكام الجازمة التي أطلقها هيكل في حياة محمد والتي هي عيب في تطبيق المنهج التاريخي من ذلك قوله: (إن أول كتب السيرة إنما كتب بعد وفاة النبي بمائة سنة أو أكثر)[٣]، فيقول معقباً علي هذا الحكم الجازم الخاطئ: (وهو الذي يعتمد سيرة ابن هشام ومعلوم أن سيرة ابن هشام تهذيب لسيرة ابن إسحاق ومحمد بن إسحاق توفي ١٥١هـ فكيف يغضي علي هذه الحقيقة ويتجاهلها ؟ لا أدري حتى

---

(١) حياة محمد، ص ٢٤٦.

(٢) مصادر السيرة النبوية وتقويمها ص١٥٣.

(٣) حياة محمد، ص٥٤.

إن ابن هشام الذي هذب هذه السيرة توفي سنة ٢١٨هـ أو ٢١٣هـ)[١].

وأره قاسيا أشد القسوة عندما يضرب بصنيع الدكتور هيكل في حياة محمد عرض الحائط،ويهدم هذا الجهد المبذول بجرة قلم هذه الإضافة التي لا ينكرها أحد في مجال الدراسات النبوية،والأدبية وهذه الريادة التي رادها في ترسيخ،وتثبيت دعائم منهج تاريخي يجمع بين الأصالة والمعاصرة فيقول: (وعلي آية حال فقد اعتدل بعض الشيء في النصف الثاني من الكتاب ولكن اعتداله هذا لا يجعل كتابه مرجعا معتمدا ولا معتبرا لمن يريد معرفة شيء من سيرة النبي ﷺ، وإن كان الكتاب قد أدي دورا تاريخيا معينا، فإن تحليلاته قد تعداها مد العلم والثقافة أيضا ومما تقدم من النصوص القليلة التي نقلناها منه نقول بكل اطمئنان :إن الترويج لهذا الكتاب وأمثاله خيانة علمية،واستخفاف بالمعرفة الإسلامية وبالقراء والمثقفين، فليتق الله امرؤ عرف ربه)[٢].

وللأستاذ العقاد وجهته في تأليف «عبقرية محمد» تلك الوجهة جعلته يخط لنفسه طريقا يسلكه له معالمه الواضحة،وخصائصه المميزة أضفي عليه كثيرًا من شخصه وعقله، وفكره الذي طبع علي الجـدل والمناقشة،والأخذ، والرد،والتحليل، والتدقيق ثم الاستنباط، والوصول إلي نتائج حتمية أوجدتها أو فرضتها طبيعة الفروض الجدلية السابقة عليها فإذا به يؤلف كتابا عن محمد ﷺ له مذاق مميز،وطبيعة تختلف عن باقي المؤلفات التي سلكت نفس المسلك، وقصدت نفس الطريق .

---

(١) مصادر السيرة النبوية وتقويمها، ص١٥٧.

(٢) المرجع السابق ص ١٥٧.

وقد أفصح العقاد في مقدمة العبقرية عن السبب من وراء تأليفه لهذا الكتاب عندما ذكر ما حدث من مناظرة كلامية بينه وبين أحد الحاضرين هذا الذي جرأ بلسانه، وكلامه علي شخص الرسول ﷺ وقال ما فحواه إن بطولة محمد إنما هي سيف ودماء !! فتصدي للرد عليه الأستاذ العقاد حتى خرج من المجلس، وطلب الحضور من العقاد أن يترجم للرسول ﷺ في كتاب يرد فيه علي هؤلاء الخصوم ويبين فيه طبيعة شخص الرسول، وكونه ينأي عما اتهم به تماما وليت كل فرد منا عقادا في نفس الوقت الذي لازال فيه الرسول الكريم يتعرض لتلك الدعاوي الظالمة علي ألسنة المغرضين، والحاقدين الأمر الذي يلزم كل فرد منا أن يكون عقاداً في شخصه، وفكره ينافح ويدافع عن صاحب الخلق الكريم، فالكتـــاب (تقدير وتقويم لعبقرية محمد الفريدة ذلك الرجل العظيم في خلقه وأوصافه، العظيم في أقواله،العظيم في أفعاله،العظيم في كل أخلاقه، ومعاملاته، و مواقفه البطولية، ولا عجب فهو أفضل الخلق، اصطفاه الله ﷻ من بين خلقه وخصه بخصائص ومواهب لم يعطها لأحد غيره)[1].

ومن هنا أصبحت هناك علاقة وثيقة بين الغرض الذي من أجله ألف العقاد عبقرية محمد والمنهج الذي اتبعه في بيان فصوله ومواده ألا وهو (المنهج التحليلي) وذلك لأنه لا يريد أن يؤرخ أو يكتب سيرة وإنما ليدفع بما لا يدع مجالاً للشك عن شخص الرسول العبقري في كل صفاته، وسجاياه وبيان مواطن تلك العبقرية التي تلفح وجه الخصوم ولا يكون ذلك إلا عن طريق الوقوف عند حوادث بعينها ليتحقق المراد من تأليف الكتاب والغاية المرجوة منه ولهذا كانت أكثر الجوانب تفصيلاً في الكتاب الحديث

---

(١) العقاد وتراثه الإسلامي – حمد بن نايف الشمري – مطبعة التقدم – القاهرة – ص٩٥.

عن عبقريته ﷺ كزوج، وعبقريته كعسكري ذلك لاتصال الحديث عن المرأة والسيف اللذين هما من أشد مواطن الطعن في حياة الرسول ﷺ.

وقد صرح الأستاذ العقاد في مقدمة العبقرية بأنه لم يؤلف هذا الكتاب ليكون (سيرة نبوية جديدة تضاف إلي السير العربية والإفرنجية التي حفلت بها المكتبة المحمدية حتى الآن، وليس الكتاب شرحاً للإسلام أو لبعض أحكامه، أو دفاعاً عنه، أو مجادلة لخصومه فهذه أغراض مستوفاة في مواطن شتي، إنما الكتاب تقدير لعبقرية محمد بالمقدار الذي يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفي وبالحق الذي يبث له الحب في قلب كل إنسان، وليس في قلب كل مسلم وكفي)[1].

ويعود في نهاية الكتاب ويؤكد علي ما سبق أن أوضحه في المقدمة من الغرض الرئيس والمنهج المتبع في ثنايا صفحات الكتاب وكأنه بذلك يريد أن يربط بين فصول الكتاب من أوله إلي آخره برباط واحد وأن يؤكد أنه لا زال يمسك بأهداب منهجه في الكتاب منذ البداية وحتى النهاية، وقد أوشك علي الانتهاء من فصول عبقريته (ولقد علم القارئ من فصولنا السابقة أننا لم نكتب هذا الكتاب لشرح الأصول الإسلامية وتفصيل محاسن الدولة المحمدية، فذلك غرض لا تتسع له هذه الفصول، وإنما نقصد بهذه الفصول إلي غرض قدمناه علي كل غرض في موضوعه وهو بيان البواعث النفسية التي توحي إلي النبي أعماله ومعاملاته ولاشك في مطابقة هذه البواعث لكل أمر من أوامر الدين وكل نهي من نواهيه)[2].

---

(١) عبقرية محمد، العقاد ص٥.

(٢) عبقرية محمد، ص١٠٢،١٠٣.

وهو بذلك يضع النقاط فوق الحروف ولا يدع مجالا لمجتهد أن يبحث في الغرض من تأليف «عبقرية محمد» والمنهج المتبع فيه فالكتاب ليس (من النوع الذي يمكن أن يضاف إلي رصيد السير في أرفف المكتبة العربية الحافلة بأنماط هائلة من التأليف في هذا المجال،ولكننا كذلك علي مخالفة مع العقاد في قضية جعل هذا الكتاب ليس سوي تقدير لعبقرية محمد مما يوحى بأن قضية الترجمة فيه غير واردة علي الإطلاق لأننا نؤمن إيمانا عميقا بأن هذا الكتاب كغيره من عبقريات العقاد يستوي تماما علي قاعدة التراجم التحليلية التي إن صرفت اهتمامها الغائر عن استيعاب كل الحجم الوجودي المعاش للبطل فهي لم تصرف اهتماماتها الأكثر تغورا علي استيعاب كل الحجم الإنساني لهذا البطل، وغير خاف هنا أن أي كاتب لا يمكن أن يصل إلي هذا التجسيد الإنساني لبطله إلا من خلال كم معين من الإيغال في حياته ووقائع وجوده)[1] وبهذه الصورة في التطبيق وبهذا الغرض من الكتاب يعد الأستاذ العقاد رائد التشكيل التحليلي بلا منازع فهو لا يطبق المنهج التحليلي من حيث القضايا والمصطلحات، وإنما هو ضوء كاشف يعمل الكاتب من خلاله ويتحسس طريقه علي هداه. (لقد كان في عمله هذا أشبه بفنان فكر في صنع تمثال للعظمة والعظماء وحرص الحرص كله علي أن يأتي التمثال مطابقاً للواقع بقدر طاقة ذلك الفنان الصانع فما زال يضع حجرا علي حجر ويضم لبنة إلي أخري وهو حين يصنع ذلك يصاحبه ذهن متوقد وبصيرة نافذة وعقل حصيف وبيده ريشة الفنان القدير الموهوب الذي يقدر كل شيء تقديرًا سليمًا ويخرج للناس تمثالاً)[2].

وأصدق دليل علي أنه قصد التشكيل التحليلي وأراد من خلاله أن

---

(١) التراجم الغيرية في الأدب العربي الحديث أ.د- محمد العزب ص٢٠٣.

(٢) أصول البحث الأدبي ومناهجه د- السيد تقي الدين ص١٠٩،١١٠.

يتحدث عن شخص الرسول- صلي الله عليه وسلم – وإنما يجد نفسه أمام كاتب اختار من كل الأخبار المروية أخبارا بعينها تكشف تمام المكاشفة عن ذات الشخص الذي يترجم له، وهو كذلك يحلل ويناقش، وينقد، ويقبل، ويرفض فـ (العقاد جمع عن بطله كل ما يتصل به قبل أن يمارس حركة الإبداع، ولكنه في لحظة الكتابة لا يضع كل هذا المجموع علي صفحات الكتاب لأن كما هائلا من هذا المجموع قد لا يعنيه، إنه يكتفي منه بأنه أعطاه صورة بطله علي النحو الذي يراه ويرضه، فإذا مارس الكتابة انتقي من كل هذا الحشد الإخباري نوع الوقائع التي تعينه علي إبراز ملامح الشخصية، ورسم مسيرة حياتها المادية، والروحية إلي مدى بعيد)[1]، ويضيف دكتور حمد الشمرى سببا آخر كان من أجله «عبقرية محمد» عندما يقول إنه أراد أن يضع أمام أعين الشباب القدوة الحقيقية التي يجب أن يحتذوا بها،وأن يصرف أعينهم عن زيف الحضارات الغربية،ونماذجها التافهة،كما يريد أن يدحر أولئك الذين هانت عليهم أنفسهم وتأثروا بهذه الأصوات،والأبواق الخادعة لدي الغربيين الذين يقصدون هدم تلك الرموز العربية في تاريخنا وتراثنا حتي يهدم التاريخ والتراث كله[2]. إذًا ليست كل الجوانب الشخصية موضوع البحث تطرح أو تناقش وإنما جوانب بعينها، وقسمات خاصة وملامح مميزة يستطيع العقاد من خلالها البرهان علي جوانب ومكامن العبقرية في شخص الرسول ﷺ هذا هو موضوع الدراسة والبحث، والتحليل وبه يتحقق التناسب بين الغرض من التأليف والمادة المجموعة من أجل هذا الغرض واستيفاء جوانبه فالعقاد (يختار جوانب

---

(١) التراجم الغيرية في الأدب العربي الحديث، ص٢٤٧.

(٢) العقاد وتراثه الإسلامي، ص٣٤٥ – بتصرف شديد.

العظمة في شخصياته العبقرية، ويخضعها للمناقشات العقلية، والاستدلالات المنطقية، والتفسيرات المختلفة التي يستند فيها علي بعض الأحداث والوقائع والأخبار، والأقوال التي ترجح وجهة نظره وتؤيدها وكلها آراء يحاول تأكيدها بقدرته العقلية المعروفة لتصبح آخر الأمر متسقة مع المقدمات التي مزجها في ذهنه واختار لها ما يناسبها من الأمثلة والشواهد)[1] هذا التركيز علي جانب العبقرية جعل العقاد لا يلتفت إلي جوانب أخري في الشخصية لها مدلولات أخري وتعكس انطباعات غير ما تعكسه تلك الأحداث،والأخبار التي ترتبط بوصف صاحبها بالعبقري أو تؤدي لا محالة إلي أن يتسم صاحبها بالعبقرية وتلك صورة فريدة، ومنظور مختلف جعل من كتاب عبقرية محمد طابع منفرد عن غيره من المؤلفات التي قامت علي نفس الموضوع،وما كان ذلك إلا من أجل المنهج الذي اتبعه العقاد في كتابه فجعله متميزا في بابه فريدا بين أقرانه.

ولعل هذا ما دفع الأستاذ توفيق الحكيم أن يقول: (فمن الفصل الأول أدركت أن الأستاذ العقاد لديه ما يقول وأن الكلام الذي عنده يرغمنا علي أن نصغي إليه،وأن كل ما عرف من قبل عن النبي محمد ﷺ لن يغنينا عما عند العقاد ؛ لأن العقاد قد درس، وفكر، واستنتج لنفسه، ثم صنع للنبي ﷺ صورة قلمية لا يمكن أن يري نظيرها علي هذا التمام في صفحات مثل صفحات كتابه المتوسط الحجم،إنه لم يكتب سيرة كما فعل الذين سبقوه، ولم يرو لنا قصة ولم يسرد تاريخا، ولكنه رسم ملامح وخط قسمات أبرزت ذلك الوجه الشريف الجليل .. علي أن الحري أن الذي يجب أن نلتفت إليه

---

(١) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث – د. يحيي إبراهيم عبد الدايم –ط – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان، ص٢٤٣.

هو الطريقة التي جري عليها العقاد في تحقيق غرضه، فهو لم يكتف باستخراج الوقائع من بطون كتب السير، لأنه يعلم أن هذه الوقائع قد أصبحت معروفة لأكثر الناس.... فنراه قد استخدم هذه الوقائع استخداما آخرا جديدا،واستنطقها معاني أخري طريفة، ولم يرض أن يسير خلفها لتقوده كما فعل أكثر الرواة، بل تناول هو زمامها وقادها بيدين من المنطق السليم، والتفكير المستقيم في طريق كلها ضوء ونور)[1] ونفس التقدير لصنيع العقاد،ومنهجه التحليلي تجده لدي الدكتور رجب البيومي الذي يشيد بالمنهج الذي اتبعه العقاد في عبقرية محمد فجعل مؤلفه فريدا في بابه عندما قال: (فقد أكون مبالغا في تقديري لكتاب أعتقد أنه فريد في بابه، وأن موضوعه القديم المشتهر قد بدا جديدا في كل سطر من سطوره،وما هكذا نظائره التي كتبها هيكل وطه حسين وتوفيق الحكيم وفريد وجدي فكل كاتب من هؤلاء يعجبك بتفوقه في منحاه الكتابي،ولكنه لا يدهشك هكذا دهشة بالغة تميل بك إلي أن تتهم نفسك، وتضطر إلي مراجعة ما كتبه عنه المفكرون حين قرأوه في أوائل الأربعينات)[2].

و لك أن تقف علي كل فكرة يطرحها العقاد في «عبقرية محمد» لتتبين دليل ذلك فعندما يتحدث عن عبقريته ﷺ كداعي[3] يبدأ ببيان الشروط التي يجب توافرها في نجاح الرسالة أو الدعوة كفصاحة اللسان واللغة، والقدرة علي تأليف القلوب، وجمع الثقة والإيمان بالدعوة، والقدرة البالغة

---

(١) مجلة الأزهر – عدد ربيع الأول ١٤٣٠هـ – مارس ٢٠٠٩ م، عن مجلة الثقافة العدد ١٧٥ – ٥ مايو ١٩٤٢ م.

(٢) مجلة الأزهر عدد ربيع أول ١٤٣٠ هـ.

(٣) راجع عبقرية محمد، ص١٥ وما بعدها.

علي نجاحها ثم يبدأ ويفصل القول في فصاحة اللسان، واللغة، ويدرسها من كل الجوانب وعلي كل الوجوه ليثبت من خلال تلك الجوانب، وهذه الوجوه كيف كان ﷺ فصيحا بكل أدوات الفصاحة،وجميع مفرداتها، فقد يكون اللسان فصيحا إلا أن هيئة النطق بالكلام وموضوعه غير فصيحة، أو يكون الصوت غير محبوب وكل هذه العيوب لم تكن فيه ﷺ فقد كانت لغته فصيحة، وهيئة نطقه للكلام فصيحة، ولسانه فصيح، وصوته محبوب مؤثر بدليل قوله عن نفسه: « أنا قرشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر »، وكما قالت عنه عائشة – رضي الله عنها – : (كان النبي ﷺ لا يسرد الكلام كسردكم هذا، ولكن كان إذا تكلم تكلم فصلا يبينه يحفظه من سمعه)[1].

فهو لا يدرس الفصاحة من حيث كونها فصاحة لسان وفصاحة لغة، وفصاحة نطق، وحسن صوت فأخضع بذلك الفصاحة لمنظار التحليل الدقيق فناقش، وحلل، وأثبت، وأكد في النهاية ما يقصده وما يبتغيه. وعن تأليف القلوب الذي هو شرط لنجاح الدعوة قال: إنه ﷺ كان لديه قبول عند كل من يراه من الضعفاء، والأقوياء سواء السادة أو العبيد سواسية من العدو أو الصديق صنوا، فقد فضله فتي مستعبد علي أبيه وأسرته وهو زيد بن حارثة، وفضله أقوياء، وسادة أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وخالد وأبي عبيدة ﷺ.

وبنفس قوة التحليل، والمناقشة يتناول الأستاذ العقاد جانبا من أهم الجوانب الشخصية في حياته ﷺ وهو كونه زوجا هذا الجانب الذي اجتمعت فيه صورة النبي، وصورة الإنسان فظهرت العبقرية ووضحت في أسمي

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٥)، ومسلم (ج١٦، ص٥٣، ط. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية) – مختصرًا، والبيهقي في السنن الكبرى (٥٨٥٤)، واللفظ له.

صورها، وأبرز معالمها، وأوضح صفاتها لأن الحديث عنه ﷺ كزوج[1] يتصل اتصالا وثيقا بالحديث عن المرأة فقد استهل العقاد حديثه عن المرأة ومكانتها قبل الإسلام ومنزلتها عبر العصور التاريخية القديمة ثم مكانتها بعد مجيء الإسلام وما أعطاه لها من منزلة عالية رفيعة صانت لها كرامتها وحافظت علي سجيتها، وخاطبتها علي قدر طبيعتها وفطرتها التي فطرها الله عليها ثم انتقل بالحديث عن معاملاته ﷺ لزوجاته باعتبار أنهن نساء لهن نفس حقوق النساء الأخريات وعلي اعتبار أنه رجل عليه نفس واجبات أي رجل آخر فصارت نساؤه قدوة لكل النساء وصار ﷺ مثالا لكل الرجال ويترك العقاد كل الأخبار وكل الأحداث التي وردت عن النبي مع زوجاته واتخذ من حادثة واحدة فقط بيان لجانب العبقرية باعتباره زوج،وهي حادثة الإفك المعروفة والمشهورة في كتب السيرة،ويعلن عن السبب الذي من أجله اختار تلك الحادثة بعينها لأن الخلق الطيب،والطبع الكريم يظهر أكثر في حالة الغضب منه في حالة الرضي ذلك أن الثانية يقدر عليها كل إنسان والأولي لا يقدر عليها إلا من وجدت فيه سجايا خاصة وطبائع فريدة وهو ﷺ أولي بتلك الطبائع وأخص بتلك السجايا عن غيره.

ثم يناقش مسألة تعدد الزوجات ويتخذ من نفسه إماما ينافح ويدافع عن الرسول ﷺ في وجه الخصوم والأعداء الحاقدين أولئك الذين اتخذوا من تعدد زوجاته سببا للطعن في خلقه الكريم فرموه بما لايليق به،وبما هو منه براء فبدأ بهدم الدعوة من منبتها بالقياس علي حالة عيسي عليه السلام الذي لم يتزوج قط،ومع ذلك لم يتهم بضعف الحالة الجنسية لديه، فلما يتهم محمد ﷺ

---

(١) راجع عبقرية محمد، ص٧٣وما بعدها.

بفرط الجنسية لتعدد زوجاته ؟.

ثم يناقش المسألة رويدا عندما يعرض لملابسات كل زيجة من زيجات الرسول الكريم ومن خلالها ينتهي إلي أن السبب فيها لم يكن كما تصوره أو توهمه أولئك المغرضون وأنه لم يكن كذلك بل هوَ أبعد ما يكون عنه فصفاته،وخلقه،وسجاياه تنافي ما اتهموه به تماما.

ثم يستطرد من هذه المناقشة إلي مناقشة وتحليل الوجهة الخلقية من التعدد عند كل رجل وأنه ربما يكون في هذا التعدد رحمة لكل من الرجل والمرأة لحالات واعتبارات إنسانية،واجتماعية شرحها، وفصلها الأستاذ العقاد تفصيلا، وتحليلا دقيقا.

وينهي الفصل بالحديث عن عقوبة الزوجات مبيناً أن هذه العقوبة التي سنها الشرع، وأقرها القرآن الكريم ليس فيها أدني مهانة أو مذلة للمرأة لأنه تعالي خلق ويعلم من خلق،ويعلم ما يصلح من شأن المرأة، وما لا يصلح معها، وهو جل شأنه لا يريد لها إلا كل خير مناقشا من خلال حديثه التدرج الذي أقره الإسلام في عقوبة المرأة وأن أقسي درجاته (هجر الفراش) يمس غرور المرأة من قريب لذا كان أبلغ العقوبات التي تقع عليها.

هكذا ناقش العقاد وحلل أدق جانب من جوانب شخصه الكريم ودافع في وجه الخصوم، والمعتدين بكل قوة (ولقد وهب الله العقاد قدرة علي الإقناع والتأثير إذ هو ليس ناقلا للمعاني فحسب بل هو عالم مفكر، فيلسوف يعتمد علي فكره الثاقب وعقله الواسع وذكائه الخارق، ونظره الحاد، فهو يسوق المعاني سياقا منطقيا ويحلل، وينقد، ويبرر رأيه ويدافع عنه بقدرته الفائقة، وبما يأتي به من أجوبة مؤثرة ومسكتة، وحجج قوية، وبراهين

قاطعة نقلية، وعقلية بما أعطاه الله من قدرة فائقة علي البحث والتحليل، والاستنتاج)[١] كما يتضح التشكيل التحليلي أيضا عندما يذكر العقاد قصة موت إبراهيم بن محمد ﷺ وكيف يواجه النبي الكريم هذه النازلة، واستطاع العقاد أن يخلص من الروايات لهذه القصة، كيف أصل النبي لقضية الحزن والفرح وكيف أصل بها لقضية الأبوة، والبنوة، ولقضية علاقاتنا بالأقدار (فحين لا يبقي من أولاده الذكور شيء، يلوي العقاد أعناق الحقائق التاريخية، والطبيعية حتى الميتافيزيقية ليبرر ليس الحقائق الكونية الثابتة، وإنما ليبرر ما كان واقعا علي مستوي ارتجال الواقع الممكن في كل آن فمحمد غير معقب ذكورا يعيشون لأن إصلاح شئون النوع الإنساني ضريبة تغني عن ضريبة الذرية، وهذا تعسف يضرب الحيادية في الصميم)[٢]، ونفس الدقة والتشكيل التحليلي تبهر الأستاذ الدكتور رجب البيومي عندما يقرأ ما كتبه العقاد عن صلح الحديبية وما ناقشه وحلله من أحداث تتعلق بهذا الصلح فإذا به يعلق علي تحليل العقاد قائلا: (ولكن أحدا لم يقل ما قاله العقاد حين استخرج من صلح الحديبية مبدأ ونهاية معاني طريفة،لم تعرف قبل ظهور عبقرية محمد..... وهذا نمط من البيان الحي المؤثر بصدقه وصراحته،ووضوحه تأثير الحق الجلي المتألق الشعاع،وإذا كان بعض ما يصور منهج العقاد في التحليل والتعليل فعلي الذين خالفوه أن يتأملوا ما كتب من جديد،ليضعوه موضعه الصحيح)[٣].

ونفس الدهشة والتقدير بمنهج العقاد في العبقرية تلقاهما عند الأستاذ

---

(١) العقاد وتراثه الإسلامي، د. حمد الشمرى ص٣٤٨.

(٢) التراجم الغيرية في الأدب العربي الحديث، أ.د. محمد العزب، ص٢٥٣.

(٣) مجلة الأزهر عدد جمادي الأولي ١٤٣٠ هـ مايو - ٢٠٠٩ م.

أحمد حسن الزيات الذي أعجب بطريقة تناول الأستاذ العقاد لجوانب هامة في شخص النبي الكريم هذا التناول جعله رائدا في بابه إماما في موطنه حيث قال: (صورة محمد في نفسه هي الناحية التي طوف حولها الرواد ولم يدخلوا، وحوم فوقها الرواد ولم ينزلوا،وهي التي قدرتها علي التخمين في خطة العقاد ثم قرأتها علي اليقين في عبقرية محمد... ذلك لأن العقاد كاتب مؤمن بالعقل والرجولة،فإذا درسته أو قرأته علي ضوء هذا الإيمان تكشف لك عن منطق فحل لا يتناقض في الرأي ولا يتعثر في الأداء.... فإذا كتب عن محمد فإنما يكتب بوحي هذا الإيمان عن عبقريته ... والحق الذي لا تجوز فيه أن كتاب عبقرية محمد هو التفسير الملهم المحكم لقول الله تعالي لنبيه الكريم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾، ولا يدهشنك أن أقول: إن شهادة الله لرسوله بعظمة الخلق ظلت مجهولة الغور والمدي، والدلالة في التفسير والتاريخ، حتى جاء العقاد فصورها بأبعادها، وحدودها، وألوانها، وسماتها كأنطق ما يكون المثال وأصدق ما تكون الحجة)[1]، وكما أدهش تناول العقاد لشخص النبي ﷺ وطريقة العرض، والمناقشة، والتحليل، والاستنتاج، والاستنباط، واختيار الأحداث التي تفي بالغرض الذي كان من أجله كتاب «عبقرية محمد»، أقول: وإن أدهش بعض النقاد فإنه كذلك لم يسلم من توجيه بعض الانتقادات إليه فالنقد مهمته ذكر الجيد و الردئ، وليس أحدهما فقط والكاتب يتقبل هذا وذاك، وهذه طبيعة في الأعمال الأدبية، وسجية في كاتبها، وقد أوجز الدكتور العزب بعض تلك الانتقادات التي وجهت إلي عبقرية محمد بما يلي:

(أ) خطل نظرة العقاد إلي طبيعة البطولة والأبطال.

---

(١) مجلة الأزهر عدد ربيع أول ١٤٣٠هـ، نقلًا عن مجلة الرسالة العدد٤٦٢ - مايو١٩٤٢م.

(ب) عدم اقتداره علي فهم طبيعة التراجم والسير.

(ج) إغفاله عنصر الامتداد في الزمان والمكان.

(د) إهداره للمنهج الموضوعي تعلقا بالمنهج الأخلاقي[١].

فالدكتور إحسان عباس يقول إن العقاد لا يترجم إلا للعباقرة وإنه يخلع علي أبطاله نوعا من القداسة تكاد تخرجهم من دائرة البشرية فيوضح ذلك بقوله: (وقد حد العقاد من حريته في الكتابة ثلاث مرات: مرة حين افترض القداسة فيمن يترجم لهم، وحاول أن يبرز ما يحسبه الناس خطأ، ومرة أخري حين اختار أن يتحدث عن العباقرة لا عن الناس العاديين، وثالثة حين اختار للكتابة شخصيات لايملك الشواهد الدقيقة عنها فإذا وجدها،وجد الاضطراب الكثير. ونجم عن هذا كله أنه لم يكتب سيرة، وإنما كتب فصولا بعضها يتميز بالنظر الدقيق النافذ،وبعضها يعتمد علي قوة الذكاء في الفحص والتبرير كما هي الحال في كتابيه عبقرية محمد،وعبقرية عمر، ولكن العاطفة الدينية قد حصرته في دائرة ضيقة)[٢].

كيف يخرجون من دائرة البشرية وهم يأكلون وينامون ويسعون في الأسواق (ولكننا لسنا ندري ما في هذه القضية من خطل ! إننا نترجم للبطل بما هو بطل وليس بما هو ابن من من الناس فأرتال هائلة من الأقيال،والملوك مضت حتي دون أن نعرف لها اسما لما هي عاجزة عن الحلول البطولي في التاريخ ... ولكننا لسنا مطالبين بأن نترجم لأى من الناس نلقاه في طريق التاريخ ... لأن العبقري أو البطل هوالذي يعطينا

---

(١) راجع التراجم الغيرية ص ٢٥٦ وما بعدها.

(٢) فن السيرة ص ٥٨.

إشارة البدء ببروزه حتي نواكب خطواته في رهج التاريخ)[١].

كما ينقد الدكتور إحسان عباس عبقرية محمد للعقاد من جهة أنه يترجم دون أن يملك الشواهد الدقيقة عمن يتحدث عنه، وأنه يكتفي بمشهور الروايات (فكم من صور وشخصيات شوهتها الروايات المشهورة،ومن خطر هذه الطريقة أن يستعملها من لم يؤت ذكاء العقاد، وقوة سفسطائيته، وشيئا من فهمه النفسي فتصبح كتابة السيرة دجلا يزور به التاريخ،وتنحدر معه مكانة الحقيقة الموضوعية)[٢].

ولم يكن مطلوبا من العقاد أن يلم بكل الأحداث، والروايات التي تحوم حول الشخصية التي يتحدث عنها لأن منهجه قائم علي التحليل الذي يقوم في جوهره علي الاستبصار وليس علي الاستقصاء، وقد نبه العقاد علي ذلك مرارا وتكرارا فهو لا يصنع سيرة ولايسرد أحداثا وإنما يقف عند أمور بعينها لأن لها مدلولاتها الخاصة لديه وحسب ما يقتضيه منهجه.

أما كونه لا يملك من الشواهد ما يؤهله لأن يترجم لشخص النبي فهذا ما نرفضه أيضا لأنه قرأ وفحص وانتقي واختار ما يلزمه وما يخدم به منهجه وغرضه من الترجمة وليس معني اقتصاره علي روايات أو جوانب محددة أنه يجهل باقي جوانب وخطوت وقسمات الشخصية التي يتحدث عنها. أما وأن العقاد ليس لديه القدرة علي فهم طبيعة التراجم[٣] والسير كما اتهمه الدكتور إحسان عباس فإن هذا الزعم مردود ذلك (إن العقاد لم يكتب

---

(١) التراجم الغيرية، ص ٢٥٦، ٢٥٧.

(٢) فن السيرة ص٦٢.

(٣) راجع فن السيرة ص٥٩.

تراجم من اللون المتعارف عليه في الأدب العربي... ولكن الزعم بأن العقاد لم يكتب تراجم علي الإطلاق،يشكل أفدح الأخطاء النقدية بلا تبرير ؛ لأن كون العقاد لا يكتب تراجم علي النحو المتعارف لا يمكن أن يصادر قضية أنه يكتب تراجم.. إن العقاد يكتب تراجمه في إطار التشكيل التحليلي وهو إطار ابتدعه العقاد في الأدب العربي الحديث، ومن هنا كان مفارقا في طبيعته، وفي منظوره، وفي رؤيته، هذه الرؤية التي تري في كتابة التراجم صورة إلي جوار صورة، ومشهد إلي جوار مشهد حتى تتكامل الترجمة وتكتمل)[١]، هكذا ينبغي أن تفهم عبقرية محمد وبهذا الشكل والتصور يجب أن تنقد إنها ترجمة من نوع خاص في إطار فريد ومنهج مختلف،ومن الظلم أن ينظر إليها كسائر التراجم حتى التي تقوم علي نفس الموضوع وتدور في خضم تلك الأحداث.

والدكتور حسين فوزي النجار يتهم العقاد بأنه يصور العظمة في الإنسان،ولا يصور الإنسان في عظمته أو يقتنص في تراجمه مكامن البطولة و مناطات العبقرية،ولا يستقطب الحياة ككل .. أويري في بطله عقلا عبقريا لا يتطرق إليه الضعف الإنساني المفترض[٢].

(إن هؤلاء الذين يرون في العقاد كاتبا يجترح كل هذه الأخطاء الموضوعية يبالغون في هذا الصدد إلي مدي بعيد.. لأن السؤال الذي يرد هنا علي الفور: متى صور العقاد العظمة في بطله،ولم يصور بطله في عظمته ؟ إن كثير من النقاد يأخذون علي العقاد أنه ينحي بلا هوادة علي

---

(١) التراجم الغيرية ص٢٦٠.

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٨، نقلا عن مجلة الفلك المعاصر.

تصور أبطاله في عظمتهم.. فكيف إذن نوفق بين هذه المقولات؟)[١].

ويذهب بعض النقاد[٢] إلي القول بأن الأستاذ العقاد استغرق في علم النفس ما جعل عبقرية محمد أشبه بدراسة نفسية عن النبي ﷺ.

والحق أن تلك المقولة لا تصدق علي عبقرية محمد بقدر ما تصدق علي كتاب العقاد عن أبي نواس وابن الرومي،وجدير بالذكر أن الكاتب الذي يعمل بالترجمة لابد له من المعرفة بعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأخلاق وغيرها من الدراسات الاجتماعية التي تساعده علي فهم حقيقة الشخصية التي يترجم لها،وتلك أدوات مساعدة فقط ومن الخطأ أن يعتمد عليها المترجم اعتمادا كليا، وهذا مالم يفعله العقاد في عبقرية محمد وأعجب كل العجب من دراسة العقاد في عبقرية محمد عندما يمسك الكاتب بخيط وسط يوازن فيه بين محمد الإنسان،ومحمد الرسول وتلك ملكة وقدرة أعتقد أنه لايقدر عليها إلا العقاد بما عرف من فكر ثاقب وقدرة باهرة علي سبر أغوار شخصية النبي ﷺ فتفتحت علي يده مكنونات وكشف عن خفايا حام حولها الكثيرون ولم يستطيعوا أن يقتحموا قلعتها كما فعل الأستاذ العقاد ببراعة منقطعة النظير.

فتقرأ عبقرية محمد وكأنك لم تقرأ عنه ﷺ شيء من قبل، علي الرغم من كثرة المؤلفات التي تناولت نفس الموضوع، ونفس الشخصية.

أما ما قاله الدكتور ماهر فهمي[٣] من أن العقاد يغفل عنصر الامتداد

---

(١) التراجم الغيرية ص٢٥٩.

(٢) إحسان عباس في – فن السيرة –، وماهر حسن فهمي في السيرة تأريخ وفن.

(٣) السيرة تأريخ وفن.

في الزمان والمكان (فالعقاد يحاول في تراجمه أن يضغط كل الزمان والمكان بحيث تحدث تصرفات البطل في لحظة دون انفساح متيح للتطور والتنامي، والاستفادة، فما أحسب ذلك مطعنا يمكن أن يوجه إلي العقاد حتى مع افتراض كونه واقع في كل تراجمه ؛لأن من غير المعقول – علي المستوي الفني – أن يهب الكاتب لبطله كل المساحات الزمانية والمكانية التي عاشها وعاش فيها معا ... إن معني ذلك أن يكتب الكاتب عن بطله أعدادا من الأجزاء بغير انتهاء،إن بطلا يعيش سبعين أو ثمانين سنة يحتاج إلي أضعاف عددها أجزاء،حتى يتاح للكاتب استيعابه ورصد حركاته)[١].

ونعيد ونكرر إن العقاد لم يكتب تأريخا أو سيرة للتاريخ حتى يطلب منه الإلمام بكل الحوادث والأحداث التي مرت بالرسول ﷺ وإنما كان له هدف آخر وغاية مختلفة – كما سبق أن قلنا – .

وأما ما قاله أحمد عبد الرحيم مصطفي[٢] من أن الأستاذ العقاد أهدر المنهج الموضوعي وتعلق بخرائب المنهج الأخلاقي (فالحياة الأدبية والفنية أوسع من أن تضيق بأشتات المذاهب والاتجاهات، والأنماط بلا حدود، فإذا أبدع العقاد من خلال منهج أخلاقي تشكيله التحليلي في كتابة التراجم الغيرية فينبغي إذن أن نواجهه علي هذا المستوي)[٣] وأن يدرس من خلال هذا المنظور، وأن يقاس عمله بالمقياس النقدي الملائم له حتى يتأتي الصواب في النقد والمصداقية في الحكم.

---

(١) التراجم الغيرية ص٢٦١.

(٢) راجع مجلة الهلال.

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٣.

وكما رمي هيكل باعتماده في كتابه حياة محمد علي بعض الروايات الضعيفة، فهكذا رمي العقاد عندما تعرض الأستاذ سيد قطب لعبقرية محمد ناقدا، وقال إن العقاد يستند (علي بضع حوادث بارزة فذة في تاريخ بعض الشخصيات – بعضها غير مقطوع بصحته – لتصوير شخصية بطلها، ولهذه الحوادث دلالتها من غير شك، ولكن استعراض سلسلة حياة هذه الشخصية أضمن وأكفل بصحة تصوير الشخصية)[١].

فهذا كلام مرفوض شكلا وموضوعا، ومن ثم فأنا (أخالف من نقدوا العقاد بأنه يختار من الروايات ما يريد ويترك ما يريد لأن اعتراضهم،لايوجه إلا لكاتب يؤرخ لا لكاتب يرسم ملامح شخصية،وقد يكون لاعتراضهم بعض الوجاهة إذا اختار العقاد رواية ضعيفة ليرجحها علي غيرها،وهذا ما تورط فيه من نقدوه بذلك دون أن يتقدموا بمثال لما اعتمد عليه من الرواية الضعيفة،وقد يكون الناقد ممن يري ضعف الرواية المختارة في اعتباره،ولكن من أين جاءه أن العقاد لم يفحص،ويختبر ويدقق حتى رجحت لديه تلك التي ضعفت لدي سواه ؟! كان علي ناقدي العقاد في هذه الناحية أن يضربوا أمثلة لما يقولون لاأن يكتفوا بالكلام السريع)[٢] بتلك الصورة لابد أن يكون النقد لا اتهامات،وافتراءات دون دليل أو برهان.

وبعد هذه السياحة الفكرية والمعايشة التامة لشخص الرسول ﷺ لابد أن أقرر مطمئنة (أن العقاد راد الاتجاه التحليلي في تشكيل التراجم الغيرية علي نحو فاهم إلي مدي بعيد وقضية أن هيكل راد الاتجاه التاريخي في

---

(١) النقد الأدبي أصوله ومناهجه ص ١٤٧.

(٢) مجلة الأزهر عدد ربيع آخر ١٤٣٠ هـ- أ.د. محمد رجب البيومي.

تشكيل هذه التراجم الغيرية علي نحو رائع سديد)[1].

فضلا عن هذا فإن الحديث عن الرسول الكريم حديثا تطيب له الأفواه، وتنشرح له الصدور وتدين له العقول... فأعترف أنني قضيت قسطا من الوقت أعيش وأتنفس طيب رحيق رسول الله ﷺ أشعر أن في قلبي مكان كبير له ﷺ فأحمد الله أن سوغ لي هذه المعايشة الإيمانية الرائعة بكل المقاييس.

كما أتوجه شاكرة للرائعين الدكتور هيكل، والأستاذ العقاد ؛ اللذين ساهما سويا في إتمام هذه المعايشة، فيالها من أيام رائعة، وياله من حديث شيق طيب.

---

(١) التراجم الغيرية ص ١٣٧.

ثبت المصادر والمراجع

(١) القرآن الكريم.

(٢) الحديث النبوي الشريف:

- صحيح البخاري – ط. دار ابن كثير – دمشق/ بيروت – ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.
- صحيح مسلم – ط. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية – القاهرة – ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.
- السنن الكبرى للبيهقي – ط. دار الكتب العلمية – بيروت – ط. الثالثة – ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

(٣) الأعلام – الزركلي – ط. دار العلم للملايين – بيروت – لبنان – ط١٦.

(٤) البحث الاجتماعي – المنهج وتطبيقاته – دكتورة حكمت العرابي – ط – ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

(٥) التراجم الغيرية في الأدب العربي الحديث – المفهوم والأصول والاتجاهات – الأستاذ الدكتور محمد أحمد العزب – ط – مطبعة الإيمان – المنصورة – ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

(٦) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث – دكتور يحيى إبراهيم عبد الدايم – ط – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – لا يوجد رقم ولا سنة الطبع.

(٧) السيرة تأريخ وفن – دكتور/ ماهر حسن فهمي.

(٨) العقاد وتراثه الإسلامي – دكتور حمد نايف الشمري مطبعة التقدم – القاهرة – لا يوجد رقم ولا سنة الطبع.

(٩) النقد الأدبي أصوله ومناهجه – دكتور سيد قطب – ط – دار الشروق – ط- الرابعة – ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠ م بيروت لبنان.

(١٠) حياة محمد – الدكتور محمد حسين هيكل – ط- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م.

(١١) عبقرية محمد – الأستاذ عباس محمود العقاد – ط- مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر لا يوجد رقم ولا سنة الطبع

(١٢) فن السيرة – دكتور إحسان عباس –ط. دار الشروق – عمان – ط – الخامسة ١٩٨٨م.

(١٣) لسان العرب – ابن منظور – ط- دار إحياء التراث العربي – مؤسسة التاريخ العربي – بيروت – لبنان – ط. الثانية ١٤١٢هـ.

(١٤) مجموع الفتاوى – شيخ الإسلام ابن تيمية – ط. المكتبة التوفيقية – القاهرة – لا يوجد رقم ولا سنة الطبع.

(١٥) مصادر السيرة النبوية وتقويمها – دكتور فاروق حمادة – ط. دار الثقافة للنشر – الدار البيضاء – الطبعة الثانية.

الدوريات

(١) مجلة الأزهر – عدد ربيع الأول ١٤٣٠ هـ – مارس ٢٠٠٩م.
وعدد ربيع الأخر ١٤٣٠ هـ .
وعدد جمادي الأولي ١٤٣٠ هـ- مايو ٢٠٠٩ م.

(٢) مجلة الثقافة العدد ١٧٥ – ٥ مايو ١٩٤٢م.

(٣) مجلة الرسالة العدد ٤٦٢ مايو ١٩٤٢م.

(٤) مجلة الفلك المعاصر.

(٥) مجلة الهلال.